الغزو الإسباني للجزائر سنة 1775 م

أ. الطاهر تومي
جامعة البويرة - الجزائر

الملخص:

شكلت حملة الكونت أورايلي على مدينة الجزائر سنة 1775م إحدى حلقات الصراع الجزائري الإسباني الذي بدأ منذ تأسيس الإيالة الجزائرية سنة 1520م على يد خير الدين بربروس بعد استشهاد أخويه إسحاق وعروج على يد الإسبان، وقد عرفت هذه المعركة إحدى أهم الانهزامات العسكرية الإسبانية الحديثة، حيث ذهب الكثير من المؤرخين إلى تشبيهها بحملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م، نظرا للاستعدادات الضخمة والإمكانيات الهائلة التي سخرتها إسبانيا لإنجاح هذه الحملة، التي علقت عليها آمالا كبيرة لاستعادة مدينة الجزائر مرة أخرى، وضمها إلى أملاك الإمبراطورية الإسبانية، إلا أن قوة الإيالة الجزائرية وعبقرية قادتها وقفت سدا منيعا في وجه طموحات الإسبان، الذين تكبدوا خسائر فادحة مرة أخرى على أسوار مدينة الجزائر، وتسلط الدراسة الضوء على أهم معركة جرت وقائعها بمدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي بين الدولة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية.

Abstract:

Conte Oreilly expedition had formed one of fights Alger- Spanish which had began at the time of province establishment in 1520 *by leader Kheir Eddine Barbarous after the death of his two brothers Isaac and Aroudj by the Spanish, however this struggle some of modern Spanish military defeating ،many historians mentioned that is similar to charlcan's campaign on Algiers in* 1541 *regarding to huge or weak kinds of military and materials that was provided by the Spanish to succeed this campaign, Which it commented on high hopes for the restoration of the city of Algiers again, and annexed to the Spanish Empire property,، whereas the strength of the Algerian province and its leaders stood bulwark against the ambitions of the Spaniards, who suffered heavy losses*

again on the walls of the city of Algiers ،and the study shed highlights on the most important battle The proceedings were held in Algiers during the 18th century between the Algerian state and the Spanish Empire.

مقدمة:

توقفت الهجمات الإسبانية على مدينة الجزائر منذ بداية القرن السابع عشر وإلى غاية حملة1775م التي تعد الأولى خلال القرن الثامن عشر، بعد الحملة على وهران والمرسى الكبير سنة 1732م والتي أسفرت عن إعادة احتلال المدينتين[1]، كما أنها تأتي بعد فشل الحملة الدانماركية عامي 1770 و1772م، وكأن الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها على إنهاك الإيالةالجزائرية كل مدة بحروب متقطعة هدفها السيطرة عليها وإخضاعها، وفي كل مرة كانت دولة من هذه الدول الأوربيةتلعب الدور ذاته، فتارة إسبانيا ومرة فرنسا وإنجلترا وتارة أخرى الدانمارك وغيرهم.

وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات التي وجهتها إسبانيا ضد الجزائر، بل يذهب الكثير من المؤرخين لتشبيهها بحملة شارلكان سنة 1541م التي قادها بنفسه على مدينة الجزائر محاولة منه لإخضاعها واحتلالها، إلا أنه مني بهزيمة نكراء، وتكبد جيشه خسائر مادية وبشرية فادحة، وعليه يمكننا طرح التساؤلات التالية:

- إلى أي مدى استطاعت الإيالة الجزائرية التصدي لهذه الحملة؟ وما هي مآلات هذه الحملة؟ وما هي أهم نتائجها على الطرفين؟

وقبل التطرق لأسباب الحملة ووقائعها أردنا التطرق لأوضاع البلدين قبيل هذه الحملة.

1-الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

أ-إسبانيا

تولى حكم إسبانيا في هذه الفترة شخصية قوية تمثلت في كارلوس الثالث(1758-1788م) الذي كان له مشروع طموح لتطوير بلاده وجعلها من أهم دول أوروبا في ذلك الوقت، فحاول إدخال إصلاحات جديدة، مست جميع القطاعات السياسية، العسكرية، الصناعية، الفلاحية والمالية، ولذلك نال بعد 10 سنوات من مباشرة هذه الإصلاحات لقب "الطاغية المستنير".[2]

أما على المستوى الخارجي فقد حاول أن يجعل من إسبانيا دولة قوية مثلما كان عليه الحال بداية القرن السادس عشر ميلادي، حتى تستطيع مواجهة الدول الأوروبية خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا تهددان إسبانيا دائما، وما إن تمكن كارلوس الثالث من تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها، وإنهاء الحرب داخل أوروبا، حتى بدأ يوجه أنظاره نحو الجزائر التي كانت تمثل بالنسبة له العدو الأول الذي يجب القضاء عليه، ولذلك ما إن حلت سنة 1774حتى كان مستعدا للهجوم على مدينة الجزائر، معتمدا على خطة تقضي بمهاجمتها بحرا وبرا للقضاء على تهديدات دار الجهاد أو "مهد القرصنة"[3] كما كان يسميها الأوربيون في ذلك الوقت.

ب-الجزائر

تولى حكم الإيالةالجزائرية في هذه الفترة محمد بن عثمان باشا[4] خلفا للداي علي "الملقب ببوصبع" وكان يحمل مشروعا حضاريا أساسه إعادة هيبة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا، لعلمه أنها كانت تعيش حالة من الفوضى والتدهور، زاد الأوضاع خطورة الاحتلال الإسباني، الذي قرر محمد بن عثمان تصفيته نهائيا حتى يستطيع توحيد كامل الإيالةوإنجاح مشروعه الحضاري.[5]

فعلى الصعيد الداخلي انتهج سياسة تعتمد على الكفاءة والقدرة في اختيار الرجال، سواء المتعاونون معه في إدارة شؤون البلاد بمدينة الجزائر، أو على مستوى البايلكات الثلاث(بايلك الشرق،بايلك التيطري،بايلك الغرب)، فكان يولي من يستحق الولاية ويعزل من يستحق العزل.[6]

ولعلمه بما كان يحيكه الإنكشارية من مؤامرات داخل الإيالة، بدأ في التقليل من عددهم وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة وشدد على تنفيذ أوامره[7] لذلك كثرت تمرداتهم ومحاولات قتله، لكنه استطاع القضاء على هذه المؤامرات وقرر لأول مرة في تاريخ الحكم العثماني للجزائر منع دخول الأشخاص المسلحين قصر الداي وتفتيش كل من يريد الدخول إلا ضباط الحكومة وضباط حراس القصر[8]بالإضافة إلى قمع القبائل المتمردة مثل: قبائل فليسة بجرجرة وقبائل بجاية التي رفضت دفع اللزمة المقدرة بـ 30بوجو سنويا، فوجه لها الداي محمد بن عثمان حملة لقمعها وإخضاعها لسلطته.[9]

أما خارجيا فقد انتهج سياسة مختلفة عن سابقيه، فرفع قيمة الإتاوات على السفن التابعة للبندقية وهولندا والسويد، أما الدانمارك فقد نقض معها معاهدة السلم لسنة 1767م لرفضها تقديم الهدايا والإخلال بشروط المعاهدة، وردا على قرار الداي قامت القوات الدانماركية بمهاجمة ميناء الجزائر، إلا أن البحرية الجزائرية تصدت لها، ولم يتمكن الأسطول الدانماركي الاقتراب من المدينة، واستمر على ذلك مدة 11 يوما، ليضطر في النهاية لعقد صلح مع الجزائر[10] بتدخل من الدولة العلية التي حثت حكام الجزائر على إرجاع القنصل الدانماركي بعد تدخل القنصل الدانماركي في استانبول، وطلبه من الدولة العلية التدخل لإبرام صلح بين الطرفين[11]، وبموجب ذلك تدخلت الدولة العلية وطلبت إبرام هذا الصلح تماشيا والعلاقات الحسنة بينها وبين الدانمارك، وفي عام 1772م جاء الأميرال هوسلاند «Hosland» إلى الجزائر وخضع للشروط[12] التي فرضها محمد بن عثمان باشا وتم إبرام الصلح بين الطرفين[13]، أما من جانب إنجلترا وفرنسا فلم يمس الداي بجوهر هذه العلاقات وترك الأمور كما كانت عليه في عهد سابقيه.

وما يمكننا قوله أن محمد بن عثمان باشا استطاع أن يحكم قبضته داخليا، بإسناد المناصب إلى رجال أكفاء لهم القدرة على تسيير البلاد بمقدرة عالية وبإخلاص تام نذكر منهم: الباي محمد بن عثمان الكبير (باي الغرب)، الباي الوزناجي (باي التيطري)، الباي صالح الإزميرلي (باي الشرق)، وآغا العرب علي، وقام بتنظيم الجيش والحد من سطوة الإنكشارية وتدخلهم في شؤون الحكم، مع مراعاة العدل بين الناس والرفق بهم حتى قال فيه الزهار:«... وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد...».[14]

أما على المستوى الخارجي فقد استطاع فرض هيبة الدولة الجزائرية، وقام بإعادة مراجعة العلاقات الخارجية وفق أسس جديدة تراعي أكبر الحقوق والامتيازات للجزائر، فيما أبقى على هدوء العلاقات مع إنجلترا وفرنسا ربما لقوتهما،وأيضا تحييدهما في أي نزاع مرتقب ضد إسبانيا، خاصة وأنه وضع من أولوياته تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

2- أسباب الحملة

أ- محاولة فك الحصار على وهران والمرسى الكبير

بعد انسحاب القوات الجزائرية من مدينتي وهران والمرسى الكبير-على إثر إعادة احتلالهما من طرف الإسبان سنة 1732م- استطاعت فرض حصار محكم على المدينتين،وبدأت في إنهاك القوات الإسبانية بالهجمات الخاطفة والمفاجئة، كبدتهم من خلالها خسائر مادية وبشريةفادحة، ونتيجة لهذه الخسائر تشكلت لدى الإسبان قناعة أنهم لا يستطيعون العيش بسلام وهناء ما لم يضعوا حدا لهذا الحصار وهذه الهجمات المتتالية.[15]

ظل التواجد الإسباني بوهران والمرسى الكبير يشغل بال الساسة والعسكريين الذين خصصوا مصاريف باهظة للاحتفاظ بالمدينتين وإبقائهما تحت سيطرتهم، فكانتا تشكلان عبئا ثقيلا عليهم، نظرا للأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها قواتهم بالمدينتين المحاصرتين، ولذلك انقسمت الطبقة السياسية والعسكرية حيال مستقبل التواجد الإسباني بالمدينتين إلى قسمين:

قسم كان يدعوا إلى الانسحاب وعدم المجازفة بالبقاء، الذي كلف وسيكلف المزيد من الخسائر المادية والبشرية، وقسم آخر كان يفضل البقاء مهما كانت الخسائر.

ومن أجل حسم هذا الخلاف قرر الملك فليب الثالث تكليف الحاكم العسكري لوهران الدوق جوزيف دي أرميورو بإعداد تقرير مفصل عن وهران والمرسى الكبير ومستوى العلاقات الذي يربط الإسبان بالقبائل المجاورة، وقد أنجز هذا التقرير سنة 1741م[16]، وبصدور هذا التقرير أصبحت السلطات الإسبانية مرغمة على اختيار أحد الحلول، إما الانسحاب وتجنب المزيد من الخسائر أو مواصلة المغامرة وتحمل النتائج المترتبة عن ذلك، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإعادة احتلال كامل السواحل الجزائرية، وبداية إخضاع مدينة الجزائر التي شكلت دائما الصخرة التي تتحطم عليها آمالهم، وفي النهاية كانت الغلبة لأصحاب الاختيار الثاني.

ب-الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية

على الرغم من الهدف الأساسي لفرض الحصار هو تحرير وهران والمرسى الكبير، ونظرا لصعوبة هذه المهمة غيرت القوات الجزائرية استراتيجيتها في مواجهة الإسبان، وقامت بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية فكانت السفن الجزائرية تهاجم هذه السواحل وتعود محملة بالغنائم

والأسرى من نساء ورجال وأطفال والذين كان عددهم بمدينة الجزائر وحدها يزيد عن 18ألف، منهم 10 آلاف إسباني[17]، وهذا ما يدل على ضخامة الهجمات الجزائرية على كامل الدول الأوروبية وخاصة إسبانيا، ونتيجة لكثرة الشكاوى من طرف سكان السواحل الإسبانية للملك، وتضررهم ماديا ومعنويا، كان لا بد له من اتخاذ قرار لوقف هذه الحملات المتزايدة.

ج- إسقاط الداي محمد بن عثمان باشا من الحكم

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن الإيالةالجزائرية تمر بمرحلة قوة وازدهار، بقيادة الداي محمد بن عثمان باشا، الذي كان يعيش العديد من المشاكل الداخلية نتيجة لإعلان بعض القبائل تمردها عن سلطته وخلافه مع الجيش الإنكشاري الذي كان الداي يريد الحد من نفوذه وتدخله في شؤون الحكم، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة والقيام بإسقاط محمد بن عثمان باشا من سدة الحكم[18]، وتعطيل مشاريعه داخل البلاد وخارجها وتوقيف هذا الازدهار المتنامي.

د- السيطرة على مدينة الجزائر

لم ينس الإسبان لسكان مدينة الجزائر استنجادهم بعروج وخير الدين، هذا الأخير الذي استطاع طردهم من قلعة البذيون في ماي 1529م، وأيضا لم ينسوا هزيمة شارلكان على يد حسان آغا على أسوار المدينة سنة 1541م، بالإضافة أن مدينة الجزائر هي عاصمة ومركز قوة الإيالة، لذلك تم اتخاذ القرار باحتلالها وإلحاقها بالممتلكات الإسبانية كما كان الشأن في مطلع القرن السادس عشر ميلادي وجعلها منطقة نفوذ، فالغاية إذن هي السيطرة على مركز الإيالةوقوتها، وهي رغبة قديمة متجذرة في نفوس الإسبان الآسفين على ضياعها، والذين فشل أسلافهم في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من كثرة محاولاتهم التي كانت على مدار القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لذلك أخذت إسبانيا تعد العدة للسيطرة على مدينة الجزائر واحتلالها نهائيا.[19]

هـ- فشل مساعي الصلح بين الطرفين

عاشت إسبانيا قبيل قرارها القاضي باحتلال مدينة الجزائر مشاكل داخلية كبيرة بسبب حروبها داخل القارة الأوروبية، فعملت على تهدئة الصراع ضد الإيالة الجزائريةولو لمدة معينة حتى تتفرغ لمواجهة هذه المشاكل لذلك أرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثا عنه للداي علي باشا

طالبا منه عقد الصلح وعارضا عليه مبالغ مالية معتبرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، غير أن الملك الإسباني لم ييأس من ذلك، وما إن تم تعيين الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1766م حتى أرسل إليه يهنئه بمنصبه الجديد وعارضا عليه إقامة الصلح مقابل مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداي الجديد رفض هذا الطلب وكرر موقف سلفه قائلا للملك الإسباني: «... إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا».[20]

ولما تأكد الملك الإسباني من فشل مساعيه لجأ إلى وساطة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي وافق على طلب الوساطة بين الطرفين، وقام بجهود مضنية في سبيل تحقيق رغبة الملك الإسباني،لدلك أرسل إلى الداي محمد بن عثمان باشا كتابا راجيا منه باسمه وباسم أخوة الإسلام أن يتصالح مع الإسبان، في مقابل حصوله على أموال كثيرة، ولإنجاح هذه الوساطة اتصل السلطان المغربي بالدولة العلية لتمارس ضغوطها على الداي.[21]

ومواصلة لجهوده في سبيل إقامة الصلح أرسل السلطان المغربي مبعوثه محمد الفزان إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الجزائر وإسبانيا سنة 1182هـ/1768م[22]، وقد نجح المبعوث المغربي في مهمته وتم تبادل الأسرى على نطاق واسع بين الطرفين، على الرغم من رفض المجلس الملكي الإسباني ولمدة قاربت 250 سنة مثل هذا الأمر، بحجة أن إطلاق سراح الأسرى المسلمين يزيد في عددهم وقوتهم.[23]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداي محمد بن عثمان رفض إقامة الصلح، ورد على مبعوث السلطان المغربي بقوله:«... هل طلبت مشورتي ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة 1767م»[24]وأمام تعنت الموقف الجزائري الرافض لأي صلح مع إسبانيا مالم تتخلى عن وهران والمرسى الكبير تأكد الملك كارلوس الثالث أنه لا حل أمامه سوى استخدام القوة العسكرية لإسقاط الداي من الحكم وإخضاع مدينة الجزائر.

و- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

يعتبر القرن السابع عشر ميلادي قرن الجهاد البحري بامتياز، مما نتج عنه تكدس هائل للأسرى الأوربيين بالجزائر، وذلك راجع لازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الجنوبية الغربية لأوربا التي كانت هدفا مباشرا للبحرية الجزائرية انتقاما من إسبانيا، ومن أكثر السواحل عرضة للهجمات الجزائرية سواحل جنوة و نابولي، ليفورن، كورسيكا، صقلية، مالطة

وميورقة... وتعد هذه المناطق الأماكن المفضلة لنشاط القراصنة الأوروبيين الذين ينطلقون منها لمهاجمة السفن الجزائرية والقيام بحملات على مدينة الجزائر.[25]

ولذلك ما إن فكرت إسبانيا في مهاجمة مدينة الجزائر حتى كانت الكنيسة في طليعة المؤيدين لها، زيادة على بعض المدن الإيطالية مثل نابولي، ليفورن وجنوة، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من الهجمات الجزائرية المتواصلة وإطلاق سراح أسراهم الذين يقدرون بالآلاف في ذلك الوقت[26]، فكان هذا من أهم الأسباب التي تحجج بها الملك كارلوس الثالث في هجومه على مدينة الجزائر.

ي- استقرار الأوضاع في إسبانيا وأوروبا

دخلت إسبانيا خلال الفترة الممتدة من سنة 1732-1775م في سلسلة من الحروب الأوروبية إلى جانب فرنسا فقد كانت طرفا فعالا في حرب الوراثة البولونية التي امتدت من 1733- 1738م، وكانت أيضا ضمن التحالف المشكل من فرنسا، بفاريا، سردينيا، في مواجهة النمسا، روسيا وجرمانيا، لفرض مرشحهم ستانيسلاسلزينسكي«Stanislasleczinski»للوصول إلى سدة الحكم خلفا للملك أوغست الثاني «Augusts2»[27] وفي سنة 1738م أبرمت الدول المتصارعة معاهدة فينا تم بموجبها إنهاء حرب الوراثة البولونية.

وبعد مدة قصيرة من توقف حرب الوراثة البولونية وجدت إسبانيا نفسها من جديد إلى جانب حليفتها فرنسا في حرب جديدة ضد ملكة النمسا مريا تيريزا«MarieThérèse»، وعرفت هذه الحرب تاريخيا بحرب الوراثة النمساوية، التي امتدت على مدار سنوات الأربعينيات من القرن الثامن عشر ميلادي، إلا أن أشهر الحروب وأخطرها التي خاضتها إسبانيا في هذه الفترة حرب 7 سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من 1756-1763م، وكان سببها الرئيسي المنافسة الاستعمارية بين دول التحالف إسبانيا، فرنسا والنمسا، ضد إنجلترا وبروسيا، والتي استطاعت خلالها إنجلترا تحقيق مكاسب هائلة في العالم الجديد على حساب فرنسا وإسبانيا.[28]

تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في هذه الحروب، لذلك ما إن انتهى الصراع الأوروبي الأوروبي حتى بدأ التفكير في كيفية استعادة هيبتها وتعويض الخسائر التي لحقت بها، فكان لزاما على الساسة والعسكريين الإسبان إيجاد طرفا أقل قوة من تلك الدول التي واجهتها في أوربا، فهداهم تفكيرهم إلى مدينة الجزائر التي يمكن السيطرة عليها بسهولة حسب ظنهم.

3- استعدادات الطرفين

أ-إسبانيا

بعد أنتوفرت العديد من الأسباب للقيام بهذه الحملة، أصدر الملك "كارلوس الثالث" أمرا إلى كافة الموانئ الرئيسية بإسبانيا، مثل قرطاجنة، قادس، برشلونة، بضرورة التحضير الجيد كتجميع الفيالق الحربية والعتاد والمؤن والآليات الضرورية، وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان 1775م.

استطاع الإسبان تجنيد حوالي 20 ألف جندي و300 فارس و600 مدفعي مع مدافعهم، في ما كانت السفن تحمل حوالي 3500 بحار[29]، و500 سفينة، توجد منها 50 باخرة حربية، 20 بارجة و20 مدمرة7 مراكب من نوع "شباك" و344 سفينة مزودة بـ100 مدفع[30]، وأسندت مهمة قيادة هذه الحملة للأميرال الأيرلندي الأصل الكونت أليخندروأورللي «AlgandroO'reilly» كقائد للجيش البري، فيما أسندت قيادة الجيش البحري لبيدوركا ستيخون«DonPedroCastejon» لتنطلق الحملة يوم 23 جوان1775م من ميناء قرطاجنة لتصل إلى سواحل مدينة الجزائر يوم 30 جوان.[31]

ب-الجزائر

على عكس الحملة الأولى ضد وهران والمرسى الكبير سنة 1732م علم الجزائريون مبكرا بخبر هذه الحملة فعملوا على الاستعداد الجيد لها بقيادة وإشراف الداي محمد بن عثمان باشا الذي أصدر أوامره وأعلن النفير العام في كامل تراب الإيالة، وأمر الناس بالجهاد للدفاع عن الدين والوطن، حاثا السكان على التعاون فيما بينهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعيشية، ومن مختلف الفئات العمرية، حتى أنه أمر بتعيين الأولاد من فوق السبعة سنين للمساعدة على تعمير القلاع والأبراج[32]. ثم وجه أوامره بضرورة تنظيم القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها، والتي قدر عددها بحوالي 11897 مجند منهم 9322 قادرا على المشاركة الفعلية في المعارك، كانوا موزعين على 424 فوجا، مقيمين بثماني ثكنات عسكرية داخل أسوار المدينة[33]، وبعدها أصدر أوامره إلى باي قسنطينة بالمسير إلى الجزائر بعد أن كان مرابطا ناحية حمزة (البويرة) وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن أحمد: «...فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدوايروالصبايحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر»[34]

وكذلك أصدر أوامره لباي التيطري، ولخليفة باي الغرب بالتوجه إلى الجزائر، فيما أمر الباي بالبقاء لتشديد الحصار على وهران، مخافة من تحرك القوات الإسبانية ومفاجأة القوات الجزائرية، أو مهاجمة مستغانم وتلمسان.[35]

4- توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

قرر الداي محمد بن عثمان باشا توزيع وحدات الجيش الجزائري إلى خمس مجموعات، كل واحدة منها ترابط في مكان معين لتكون على أهبة الاستعداد للمدفاع عن المدينة والتصدي للقوات الإسبانية، وكان توزيعها على النحو التالي:

-**المجموعة الأولى:** أسندت قيادتها "لحسن الخزناجي"، وكان مركز رباطها عين الربط (الحامة حاليا) ووادي الخنيس معه 40 خُباء (فصيل أو سرية)، وفي كل خُباء 30 نفرا من العسكر، أي يوجد معه حوالي 1200 جندي.

-**المجموعة الثانية:** أسندت قيادتها "لعلي آغا" آغا العرب ومركز رباطها واد خنيس (العناصر حاليا)، وأمر الداي أن يكون معه 40 خُباء في كل خُباء 30 نفرا من العسكر أي 1200 جندي.

-**المجموعة الثالثة:** أسندت قيادتها للسيد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل ومركز رباطها باب الواد، وأمر بأن يكون معه 20 خُباء في كل خُباء 30 نفر أي يوجد معه 600 جندي.[36]

-**المجموعة الرابعة:**باي التيطري "مصطفى باي" ومركز رباطه تمنفوست، تؤازره بعض القبائل وفرسان سباو.

-**المجموعة الخامسة:**خليفة باي الغرب يؤازره الخزناجي من الجهة الغربية من رباط (عين الربط) ومعه 4 آلاف فارس من الدواير.[37]

5- توزيع المدافع على الأبراج

- برج الفنار (برج البحرية) وبه 180مدفعا.
- برج السردين وبه بطاريتان من المدافع بها 32مدفعا.

- برج الجديد (برج الزوينة) وقد جدد بناءه محمد بن عثمان باشا ما بين 1773-1774م فيه مجموعة من المدافع، وفي المحصلة يوجد حوالي 200 مدفع جاهز للدفاع عن المدينة.[38]

أما فيما يخص العدد الكامل للقوات الجزائرية المستعدة فعليا للدفاع عن المدينة، فإننا نستعين بالتقرير الذي قدمه سان ديدي حول الحملة الإسبانية نقلا عن جمال قنان وكان توزيعها كما يلي:

- بايلك الشرق بقيادة صالح باي، عدد قواته 20 ألف رجل.
- بايلك التيطري بقياد مصطفى باي، عدد قواته 40 ألف رجل، فيما ذكر الجديري رقم 20 ألف.[39]
- بايلك الغرب بقيادة الخليفة نائب الباي، عدد قواته 20 ألف جندي.
- آغا العرب بالجزائر عدد قواته 2000 من العثمانيين.
- الخزناجي بالجزائر عدد قواته 6 آلاف رجل.
- وكيل الحرج عدد قواته 5 آلاف رجل من العثمانيين.[40]

أما باي الغرب فبقي مرابطا في أرزيو يترصد تحركات الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير وكان عدد قواته يتراوح ما بين 30 و40 ألف رجل.[41]

6- سير الحملة ونتائجها

أ-سير الحملة

في 02 جمادى الثانية 1189هـ الموافق لـ30 جوان 1775م، بدأت تظهر القوات الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر، وما إن بدأ الناس يخرجون من صلاة الجمعة حتى رست مقدمة الجيش بالحراش ونتيجة لهذا الوصول المفاجئ قام صالح باي بمناورة ذكية وأنزل قواته التي قدرت بحوال 20 ألف جندي بمكان غير بعيد عن الحراش.[42]

ومع مطلع فجر يوم 01جويلية1775م قام القائد العام للقوات الإسبانية الكونت أورللي بجولة استطلاعية رفقة العديد من الضباط والمستشارين على متن السفينة " سانتا كلارا" لاستطلاع الأوضاع على الساحل والتعرف على الدفاعات الجزائرية المنصوبة، لكنه تفاجأعندما رأى المدافع والبطاريات موزعة على كامل المدينة من كل الجهات، وأكثر من ذلك اكتشافه

لتحصينات قوية لا يمكن اختراقها، مما دفعه إلى اختيار حل آخر وهو النزول إلى البر ثم الزحف على مدينة الجزائر للسيطرة عليها.[43]

قرر الكونت أورللي إنزال قواته على الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس (العناصر) والحراش وتم حشد حوالي 20 ألف جندي بكامل معداتهم الحربية ومؤنهم، وقد وصف أحد قادة القوات الإسبانية الأميرال مزاريدو«Mazarrede» عملية النزول والظروف المحيطة بها قائلا: «...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أورللي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومعي 12 قطعة مدفعية من عيار4، ثم يليها مباشرة إنزال 12 مدفع من عيار8بالإضافة إلى 8 مدافع من عيار 12، إلا أننا تفاجئنا برياح قويةيوم03 جويلية[44]مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها 4جويليةونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها 7600 رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها 7 آلاف رجل».[45]

فيما أخذت القوات الجزائرية مواقعها استعدادا لملاقاة العدو متبعة إستراتيجيةمحكمة لتطويق القوات الإسبانية،حيث لم يتركوا أي مجال للصدفة، متخذة الشكل التالي:

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزرقة، قوات حسن الخزناجي تؤازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحراش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خططه وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.
- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.[46]
- سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.[47]

الملاحظ إذن أن المدينة أصبحت مطوقة من كل الاتجاهات، فما إن تنزل القوات الإسبانية إلى ساحة المعركة حتى تجد نفسها محاصرة من كل الجهات.

أخذ كل قائد ينظم قواته ويعدها لخوض المعارك في المنطقة التي خصصت له، وقاموا بحفر الخنادق والمتاريس، ومما ساعدهم على إتمام تجهيزاتهم تأخر نزول القوات الإسبانية أسبوعا كاملا نتيجة التردد وهبوب الريح وإلى ذلك أشار ابن رقية التلمساني بقوله:«...إن مكث العدو كان خيرا لنا، لأن قبائل العرب كانوا يجيؤون من كل ناحية إلينا».[48]

بدأت القوارب التي تحمل الجنود الإسبان بالتقدم نحو الساحل، وما إن وصلت حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشاطئ وفي نفس الوقت تقوم السفن الحربية بقصف معسكرات القوات الجزائرية مركزة قصفها على المنطقة التي توجد بها قوات حسن الخزناجي رغبة منها في تأمين عملية النزول، لكن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد.[49]

نزل الجنود الإسبان إلى البر وبيد كل واحد منهم بندقية ورمح برأسين حديديين، لتستعمل كمتاريس حول معسكراتهم، وفي نفس الوقت يعيقون بها تقدم الخيالة الجزائريين، كما أنزلوا معهم أكواما من الأخشاب مربوطة في شكل حزم ومهارس القنابل والمدافع ومعهم جميع ما يلزمهم، لتبدأ فرقهم العسكرية في بناء الاستحكامات باستخدام تلك الرماح، إلا أن القوات الجزائرية بتمركزها الجيد استطاعت أن تعيق تحركاتهم وتطوقهم وتحاصرهم في منطقة ضيقة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، رغم تحصيناتهم التي بادروا منذ البداية بإقامتها.[50]

بعد أن أدرك الإسبان خطورة الموقف حاولوا فك الحصار مبكرا لذلك هرعت قواتهم نحو البساتين المجاورة والحقول الواقعة بين الحراش وخنيس، وقاموا باستخدام الأسطول في قصف تجمعات القوات الجزائرية التي أبدت مقاومة شرسة في التصدي لهم، والتي بقيت لمدة 3 أيام وهي تحارب في نفس المنطقة إلى أن استطاع أحد المدافعين واسمه عمر براقنيس إدارة مدفعين إلى ناحية الحصن، الذي يتواجد به الإسبان فأحدث ثغرة في حائطه، مما مكن الجزائريين من توجيه قذائف مباشرة إلى تجمعات الإسبان وسفنهم، مما نتج عنه تدمير العديد من المتاريس، وبذلك بدأت المعركة تميل لصالح الجزائريين.[51]

أسفرت هذه المعارك عن خسائر فادحة في صفوف الإسبان، فقد قتل حوالي 119 ضابط و2088 جندي، أما من بقي من الجيش فقد أُحكم الحصار حولهم تماما وغدا الصمود لا يجدي نفعا، لأن القوات الجزائرية أحكمت سيطرتها على المنطقة.[52]

ب-اليوم الرابع من المعارك -بداية النهاية للقوات الإسبانية-

على الرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك، إلا أنه لا أحد من الطرفين استطاع حسم المعارك لصالحه، فحاول كل طرف إيجاد طريقة ما لحسم الأمر نهائيا، ومن هنا خطر على بال صالح باي خطة حربية يفاجئ بها القوات الإسبانية ويشتت شملها ويقتحم معسكراتها المحصنة، ففي اليوم الرابع من المعارك صبيحة يوم الإثنين أشار صالح باي بتجميع كل الإبل التي قدم بها من قسنطينة، وكان عددها[53]500، ووضع فوقها الصوف وقام بإشعاله فاندفعت الإبل إلى الأمام نحو خنادق الإسبان فداستها واقتحمتها[54]، فيما كانت قواته المقدرة بحوالي 20 ألف رجل تمشي خلفها، وكان يهدف من وراء هذه الخطةحماية جنوده من رصاص الجنود الإسبان[55]، زيادة على إرعابهم وبعث الخوف في نفوسهم لمشاهدتهم هذا الموقف الرهيب[56]، وفي هذه الأثناء التحقت بقوات صالح باي قوات الخزناجي من جهة الغرب، ومن الجنوب قوات خليفة باي معسكر وقوات خوجة الخيل.

والتقى الطرفان في معركة رهيبة استطاعت فيها القوات الجزائرية دخول المتاريس وملاحقة القوات الإسبانية التي بدأت في الفرار باتجاه السفن بدون تنظيم، وما زاد الأمر تأزما بُعدهم عن البحر،حيث قدرت المسافة بنصف ميل،وقتل منهم الكثير وهرب بعضهم في الزوارق إلى سفنهم.[57]

على الساعة الثالثة صباحا من يوم 8 و9 جويلية تمكن بعض الإسبان الذين نجوا من نيران وسيوف الجزائريين من ركوب سفنهم، وكلهم فرح وسرور بتمكنهم من النجاة من هذه المجزرة الرهيبة، تاركين خلفهم مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي أنزلوها لإحكام الحصار على المدينة، وظل أسطولهم إلى غاية 24جويلية محاولا إعادة القصف والهجوم من جديد، لكن المجلس الحربي رفض خطة أورايلي، ليتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا وسط خلافات حادة بين قادته،وكل واحدمنهم محملا مسؤولية الانهزام للآخر.[58]

أما من جانب الجزائريين فقد زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأُعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار:«... وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزنداره وعماله وهم يفرقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ100 سلطاني على كل رأس بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض برؤوس النصارى والمدافع»[59]، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون.

انتهت المعركة بانتصار الجزائريين على الإسبان الذين رجعوا خائبين مرة أخرى، وتحطمت آمالهم على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة بفضل عبقرية الداي محمد بن عثمان باشا ومعاونيه من أمثال صالح باي وأغا العرب وحسن الخزناجي وخليفة باي الغرب، زيادة على شجاعة الجنود الجزائريين سواء النظاميين أو المتطوعين من أبناء القبائل والعرب والسكان المحليين، وقد أسفرت هذه الحملة على عدة نتائج.

ج- نتائجها

- فشل الإسبان بقيادة الكونت أورللي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.
- تكبد الإسبان خسائر مادية وبشريةفادحة، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ 8 آلاف قتيل و3 آلاف جريح منهم 12 مهندسا، ومن الضباط السامين 250 ضابطا منهم كاهية الجنرال"كاتبه"[60]، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن عدد القتلى كان11 ألف قتيل[61]، بالإضافة إلى تركهم حوالي100 مدفع وجميع الآلات الحربية.[62]

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابتهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلا: «... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار 18، بالإضافة إلى 19 رطلا من

رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح».[63]

وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلا الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

أما بالنسبة للخسائر البشرية حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماما لما أوردته المصادر المحلية ولم تتجاوز حسبهم 191 قتيل و27 جريحا من الضباط، و2088 جندي قتيل و501 جريح في صفوف الجنود.[64]

- أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند البعض 200 شهيد[65]، أما عند البعض الآخر فقد بلغت 300 شهيد[66] فيما ذهب البعض الآخر إلى 400 شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط[67] (عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين"ساحة أول ماي حاليا")
- زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخبر السعيد للسلطان عبد الحميد الأول[68]مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداي محمد بك ووكيل خراج القصر تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهنئة ومباركة له هذا الانتصار.[69]
- تركت هذه الهزيمة أثرا بالغا عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم الفاشلة السابقة، خاصة حملة شارلكان سنة 1541م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة أمامهم دائما.[70]
- سطوع نجم الداي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهورا ومحبوبا في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته

العسكرية أن لا يترك شيئا للصدفة، ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطرة مرصعة بالجوهر والكثير من السفن ولوازمها والأشرعة تكريماوتعظيما له.[71]

• خلّدا هذا النصر لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرائحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِـيَ الأَقْـلاَمُ تَنْطِـقُهُا المَحَابِـرُ لِتُـسْمِعَـكَ اليَقَينَ عَـنِ الجَزَائِرِ

وَبَاؤُوا مِثْلَمَا جَـاؤُوا خَـزَايَا وَأَعْـطَوْا مَا أَكَـنَّ في الضَّمَائِرِ

وَكَـمْ رَمَـتْ الحُـصُونُ عَلَـيْهِمُ مِنْ صَـوَاعِقِ لاِ تَعْدُ خِلاَلَ زَاخِرِ

وَلاَ تَـحْـزَنْ فَإِنَّ اللهَ مَـعَـنَا إِذَا الْتَـقَتِ العَسَاكِرُ بِالْعَسَاكِرِ.[72]

• استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد بن عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من 1778- 1782ممن أهم السنوات التي حقق فيها الجهاد البحري أعلى مستوياته، لأن المداخيل زادت فيها وقاربت المليوني فرنك سنويا.[73]

• انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى، وفي ذلك يقول الزهار:«فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى وقيمة كل أسير 200دورو، فإذا جاء الغداء يفتدونهم بألف دور لكل رأس»[74]، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

7-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

اختلف المؤرخون في تفسير العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار الجزائريين وهزيمة الإسبان، وكل واحد فيهم يحاولتفسير هذا الأمر من وجهة نظره، فهناك من أرجعها إلى الأخطاء الحربية التي وقع فيها الإسبان، وثان أرجعها إلى دهاء وعبقرية القادة الجزائريين

بقيادة محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل علي خوجة وصالح باي...وغيرهم، وآخر أرجعها إلى تأييد الله بالملائكة وكراماته التي أنزلها على الجيش الجزائري نتيجة لإيمانه وصبره، ولذلك نلخص مجمل هذه الأقوال فيما يلي:

• التردد الذي طبع قرارات قادة الجيش الإسباني وعلى رأسهم الكونت أورللي والدون بيدروكاستيخونفي اختيار موقع الإنزال، فقد استغرق ذلك 7 أيام كاملة[75]، وهذا فيه إنهاك لقوى الجيش الذي أصابه العياء من قلة النوم والجهد المبذول خلال هذه المدة، وكان من المفروض أن يختار نقطة الإنزال مسبقا قبل وصول الحملة إلى الجزائر، حتى يتم الإنزال بأقصى سرعة ممكنة.

• استهزاء الإسبان بقدرات الجزائريين على رد الحملة وعدم تقديرهم الجيد لمعطيات المعركة، سواء ما تعلق بقدرات الجزائريين العسكرية أو أرض المعركة نفسها، فقد دخلوا المعركة دون أن يقع اختيارهم على شاطئ حصين، كما أنهم فشلوا في معرفة أماكن تواجد المدافع الجزائرية التي وضعت على المرتفعات المطلة على مكان نزولهم[76]، لذلك كانت تقديراتهم سيئة، زد على ذلك أن تخطيطهم لهذه المعركة كان أسوأ.

• قوة وفعالية المدفعية الجزائرية التي كانت متمركزة جيدا على المرتفعات و بين الأشجار والبساتين المحيطة بأرض المعركة، وتآزر وتدخل القوات الجزائرية في آن واحد ضد العدو، أدى إلى حسم المعركة لصالحهم.

• مهارة وكفاءة القادة الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل صالح باي ومصطفى خوجة وخليفة باي الغرب... الذين عرفوا كيف يخططون لهذه المعركة.[77]

• لعبت المكافآت المالية التي وعد بها الداي محمد بن عثمان باشا جنوده -لكل من يأتي برأس جندي إسباني- دورا مهما،وكانت دافعا لمزيد من الحماس والشجاعة لدى الجزائريين من أجل الحصول على 10 دنانير مقابل كل قتيل مسيحي[78]،ومما نلاحظه في هذا الشأن أن جون وولف يفسر هذا الأمر على أنه جشعبحت لهؤلاء المقاتلين الذين يريدون الربح المادي فقط، وهذا هو ديدنه في كامل كتابه فيما يخص كل المعارك التي خاضها الجزائريون خاصة المتطوعون منهم، غير مبال تماما بعقيدتهم التي تدعوا إلى الجهاد والفوز بالجنة زيادة إلى حماسهم في الدفاع عن وطنهم وأرضهم التي يريد الإسبان الاستيلاء عليها، وهم في ذلك غير متناسين

مأساة إخوانهم من الأندلسيين الموريسكيين الذين فعلوا الإسبان بهم الأفاعيل وطردوهم من أرضهم، زيادة علىالانتقام من الإسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير.

- الشجاعة والإقدام اللذان تميزت بهما القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة وذكائها الحربي وسرعة تحركاتها داخل أرض تعرف خباياها بالتفصيل.[79]
- الخطة العسكرية المحكمة التي نفذها صالح باي هي التي رجحت الكفة لصالح الجزائريين وأثبتت ذكاءه وخبرته العسكرية، وكانت سببا في تحقيق هذا النصر.[80]
- الكرامات التي حدثت للمجاهدين الجزائريين أثناء القتال، وقتال الملائكة معهم[81]، حتى قيل أن النار كانت تشتعل في جنود النصارى بعون الله سبحانه وتعالى.[82]

وعموما فإن هذه العناصر مجتمعة هي التي قادت الجزائريين للانتصار ودحر الحملة الإسبانية، على الرغم من اختلاف التفاسير لهذه الأسباب، فهناك المتعاطف مع الإسبان خاصة الأوروبيين، وآخر متعاطف مع الجزائريين، ومع ذلك مهما كانت التفسيرات فإنها لا تنقص من هذا الانتصار، بل يبقى من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة الجزائرية الحديثة.

خاتمة:

تعتبر هذه المعركة التي درات وقائعها على أرض الجزائر بداية النهاية للصراع الجزائري الإسباني الذي دام حوالي ثلاثمائة سنة، حاولت فيها إسبانيا بكل ما أوتيت من قوة إبقاء الجزائر تحت سيطرتها، إلا أنه بانتهاء هذه المعركة تأكد للساسة والعسكريين الإسبان أن الجزائر الحديثة لا يمكنهم احتلالها أو إخضاعها، لذلك يجب التفكير في طرق أخرى لعلهم يستطيعون بها تحقيق أهدافهم التي عجزوا عن تحقيقها بالقوة العسكرية، لذلك سنلاحظ فيما بعد أن الخيار الوحيد المتاح أمامهم هو الخيار الدبلوماسي الذي بدأ سنة 1786م بتوقيع اتفاق صلح بين الطرفين، ليتوج مسار هذا الطريق الدبلوماسي بمعاهدة نهائية سنة 1791م، تم على إثرها انسحاب الإسبان النهائي من وهران والمرسى الكبير بعد احتلال دام حوالي 280 سنة، وبذلك تضع الحرب أوزارها بين الجزائر وإسبانيا بعد صراع مرير وأليم كبد الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

الهوامش:

[1]- في سنة 1708 استطاع الداي محمد بكداش تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير لأول مرة من الاحتلال الإسباني بعد احتلال دام 203 سنة، ليعاد احتلالهما سنة 1732 بقيادة الضابط الكونت دي مونتماريا.

[2]- جون وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.، ص 403.

[3]- نفسه، ص403.

[4] - ولد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير بمليانة ما بين 1734-1737م، كان ولده عثمان الكردي باياللتيطري، وأمه تدعى زايدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حضى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم، الذي صار باياللتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة 1759-1760م، كان محمد الكبير يحظى بثقة الداي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة 1779-1797م، وخلالها سجل الباي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...»، محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتّاب، الجزائر، 1990م، ص100؛ بلبراوات بن عتو: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر"، **حولية المؤرخ**، ع3/4، الأبيار، الجزائر، 2003م، ص197؛

Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856, *pp* 403-406.

[5]- بوحفصتجاجنة: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011 م، ص63

[6]- أحمد شريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص37.

[7]- عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م.، ص 523.

[8]- نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسيب في مقر الحكم، وربما راجع لضعف الحكام السابقين الذين كان يُتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.

[9]- بلبراوات بن عتو: الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م"، **مجلة عصور**، ع6/7، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2005م.، ص ص 92، 94.

[10]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص 40، 41.

[11]- مجموعة رقم 3205، علبة رقم 54، وثيقة رقم 16.

[12]- من أهم هذه الشروط دفع 50 ألف سكين، و4 مدافع من البرونز، و400 قنبلة و500 قنطار بارود و500 صارية للأشرعة، وكميات معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص526، بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100،

[13]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 524.

[14]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص37.

[15]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 529.

[16]- للمزيد عن هذا التقرير ينظر: أرميورو، وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو، تقديم وترجمة: محمد القورصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1978م.

[17]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص41.

[18]- بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100.

[19]- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007، ص 451.

[20]- شكيب بن حفري: العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002م، ص 124.

[21]- نفسه، ص125.

[22]- بوحفصتجاجنة: المرجع السابق، ص69.

[23]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 227.

[24]- شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 125.

[25]- يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 185.

[26]- ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 156.

[27]- امحمد موفقي:العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسمالتاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م.المرجع السابق، ص33

[28]-جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص26

[29]- جون وولف: المرجع السابق، ص 403، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانس أن عدد القوات كان 25447 شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية...وغيرهم،أما السفن وتجهيزاتها فكانت 6 سفن كبيرة،12 فرقاطة9 شباك، 24 سفينة من نوع آخر، 176 قطعة مدفع و2 مدافع هاون...جيمس ولسن ستيفانس: الأسرى الأمريكان في الجزائر، 1785 -1797 م، ترجمة، علي تابليت، منشورات ثالة، الجزائر، 2008 م، ص ص58 – 59.

[30]- أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا 20 ألف جندي و500 سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42، مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص1، محمد أبوراس الناصري:عجائب الأسفار ولطائف الأخبار،ج1،دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف،الجزائر، 2011م،ص 338

3-*Dalarymple (Major),Expedition D'oreilly*1775,*R.Af, N°*5*, Alger,* 1861*, pp*33.34

[31]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

[32]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 157.

[33]- محمد الطاهر بن أحمد: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263، ص22.

[34]- ابن رقية الجديري التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626، ص26.

[35]- نفسه، ص ص 26، 27.

[36]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 01.

[37]-جمال قنان: المرجع السابق، ص 256

[38]-ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 27

[39]- ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي 113 ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغا فيه كثيراً ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتا لهذا العدد الضخم.

[40]- جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 256 – 257.

[41]- أوجين فايست: تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 – 1873 م،ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان،ط1،دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر،1432 هـ/2010 م،ص31.

[42]-Berbrugger (Adrien), *Reprise D'oran par Les Espagnolsen 1732, R.Af, N°8, Alger 1864, p174.*

[43]- هكذا هو ديدن الأوربيين دائما عندما يتعلق الأمر بمعاركهم ضد الجزائريين، ولكي يبرروا هزائمهم يلجأون إلى العوامل الطبيعية مثل الرياح والأمطار وغيرها، وهي كلها مبارات غير مقنعة تماما، ناسين أو متناسين قوات الجيش الجزائري وعبقرية قادته.

[44]- *Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864, pp 255, 257.*

[45]- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص465.

[46]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص158.

[47]- ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص27.

[48]- امحمد موفقي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية،المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م، ص 37.

[49]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 159.

[50]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42.

[51]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص530.

[52]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

[53]- مجهول: تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م، ص 10؛ الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 250.

[54]- يذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة 479 هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.

[55]- أوجين فايست: المصدر السابق، ص33.

[56]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص42-43.

[57]- حساني مختار:"شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006 م،ع4، جامعة الجزائر، الجزائر،2013 م، ص228.

[58]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.

[59]- ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص31.

[60]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 02.

[61]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.

[62]- *Mazarredo (J. de), op.cit, p265.*

[63]-*Berbrugger (A), op.cit, p184.*

[64]- يقول جون وولف أن عدد القتلى بلغ 27 ضابطا و500 جندي وجرح 191 ضابطا وأكثر من 1000 جندي، جون وولف، المرجع السابق، ص 406؛ وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.

[65]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

[66]- ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 31.

[67]-محمد أبو راس الناصري: الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3182، ص338.

[68]- ولد سنة1138 هـ/1726م، جلس على العرش سنة 1187هـ/1773م، ومدة حكمه 16 سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة 1189هـ/1775م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة 1203هـ/1789م، عن عمر يناهز 66 سنة...، محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م، ص ص 184، 186.

[69]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.

[70]- أمحمد موفقي: المرجع السابق، ص39.

[71]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.

[72]- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 245، 246.

[73]- المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة، الأساطير والواقع-، ج2، دار القصبة، سعيد حمدين، الجزائر، ص 468.

[74]- أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 144.

[75]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص531.

[76]- جون وولف: المرجع السابق، ص 406.

[77]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 161.

[78]- جون وولف: المرجع السابق، ص 404.

[79]- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 469.

[80]- مجهول: تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة،تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م، ص10.

[81]- لا يمكننا نفي أو تصديق هذا الأمر، لكن نقول أنه ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزوة بدر الكبرى مثل هذه الكرامات للمجاهدين المخلصين، لأن الله سبحانه وتعالى يمد عباده بالملائكة للقتال معهم نصرة لدينه وعباده المظلومين، ويمكن أن يكون حدث هذا الأمر في هذه المعركة.

[82]- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.